الكتاب ،لا يستبعد فكرة إقدام المؤلف على تسطير برنامجه الانتخابي الذي يعلن فيه ولاءه الخالص للجامعة العثمانية اولا وأخيرا .ولقد كتب مارون عبود في **رواد النهضة الادبية**(دار العلم للملايين : بيروت ١٩٥٢ . ص ٣٣١) يقول :« وللبستاني غير ترجمة الالياذة كتاب(عبرة ونكرى) الذي طبع عام ١٩٠٨ يوم كنا نبث له الدعوة ليكون نائب بيروت في مجلس المبعوثـــان . فكان ثم صار في مجلس الاعيان ، واخيرا أمسى وزيرا خطيرا يرجع الى رأيه في الجلى . » .

حقا ، ان كتاب « عبرة ونكرى » لا يخرج عن كونه « وثيقة دفاع عن الانقلابيين وعن الدستور »(من دراسة المحقق عن الدولة العثمانية والاصلاح ، ص ٤٤) . ولا يدخر البستاني جهدا في التأكيد على ولائه المطلق للفكرة العثمانية مع العلم بان الشهادة للدولة العثمانية الجامعة يسجلها« واحد من الذين لم يدينوا بدينها » . وسوف نرى في عرضنا الموجز لافكار سليمان البستاني انه لا يؤرخ للدولة العثمانية قبل الدستور وبعده الا في نطاق ضيق ومحـدود للغاية . لا بل هو يؤدي واجبه كعثماني في الدفاع عن تلك الدولة في ظل الدستور ، ويعمل جاهدا رفع شأن الجامعة العثمانية :« وانما هي نفثات عثماني محب لوطنه باح بشيء منها وادخر ما بقي منها لفرصة اخرى »(ص ٢٢٦) .

وفي التمهيد الموجـه الى « ابنـاء الوطـن العثماني »ينبه البستاني الى الاعتقاد الخاطىء لدى من« يحسبون ان للدول ادوار وقد انقض من بينهن دور دولتهم الباسلة »(ص ٣٦) . ومن الصحيح تبعا لنظرته ان الدول لها اد وار ، لكن دور الدولة العثمانية لم ينقض . فهو يرمي في خاتمة الكتاب الى طمأنة ابناء الوطن وتعزيز ثقتهم بالمعلومة التاريخية النظرية التالية :« إن الدول تزول وتنقرض ، وأما الامم فلا تنقرض ولا تتلاشى بل تبقى حية ما حيي الناس . وقد تتحول من حال الى حال فتنحط وترتقي وتندمج بغيرها . وقد تتفرق وتتوزع افرادها في المجتمـــع البشري فتفقـــد وطنيتهـــا الاولى »(ص٢٤٣ ــ٤) . وهذه النغمـة ليسـت ببعيدة عن آراء ابن خلدون في العصبية وأدوار الملك ، كما تتكرر فيها اصداء نظرية شبنغلر في الدورة الحياتية التي تمر بها الحضارات والدول .

عبرة وذكرى أخرى

ومما تجدر الاشارة اليه بالنسبة لعنـوان الكتاب ومناسبة تاليفه وصدوره ، إن هناك مجموعة من المقالات صدرت في كراس عام ١٩٠٩(بيروت) يحمل العنوان إياه بالضبط : [« عبرة ونكرى أو كلمة حول الشورى »] ، وقد كتبها الدكتور ايوب تابت لمناسبة إعلان الدستور العثماني . ويقول امين الريحاني في إحدى رسائله المؤرخة سنة ١٩٠٩ ان ريع كتاب الدكتور تابت قد « حبس على شهداء وجرحى الجيش الدستوري الزاحف » من سالونيك تحت راية الاتحاد والترقي للاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني .ونعرف من رسالة الريحاني في تقريظ الكتيب ونقده ان الدكتورتابت تناول موضوعات « الملك والرعية والسلطة ومصدرها وحقوق الانسان الطبيعية » كما أفرد فصلا بعنـوان « لا دخـل للمذاهب في ترقي الامم وانحطاطها » . وقد يكون ايوب تابت قد توخى الرد على سليمان البستاني . أو الذهاب الى أبعد مما ذهب اليه معرب الالياذة . وليس هنا مجال المقارنة بين هذين الكتابين في تناولهما لموضوع واحد من زوايا مختلفة . ففي تلك الفترة التي أعقبت إعلان الدستور العثماني (القانون الاساسي ، الشورى) استفاق الكثيرون من نشوة الحماس للتآخي والاخاء والانتصـار العثمانـي والفرحة العارمة التي غمرت النفوس لكي يرسموا أبعاد المرحلة ويحددوا طبيعة التغيير الذي كاد يضيع في زحمة التطبيل والتزمير وبيانات التغني بالاخاء العربي ــ العثماني . فالدكتور ايوب تابت يتحدث في كراس « عبرة ونكرى » ــ مثلا ــ عن استنارة الشعب كشرط لنجاح الثورة ومن أن الثورات يتبع بعضها بعضا وتتفاوت ازمان وقوعها بتفاوت الامم النازعة اليها في الاستنارة والعلم ويكتب الدكتور تابت في مجلة **المقتطف**(المجلد السادس والثلاثون ،ص ٨٣٩ ، ١٩١٠) مقالة ليشرح فيها فكرته الاساسية وتقويمه للانقلاب العثمانـي ملخصـا الموقف بعبارة ان « ثورتنا السياسية لم تتقدمها ثورة في الافكار » .

بينما نجد مفكرا نهضويا آخر هو الدكتور شبلي شميل يتحدث عن الانقلاب العثماني بوصفه